



كان عروة بن الزبير - شقيق عبدالله بن الزبير - إماماً جليلاً، زاهداً في مناصب الدنيا وواجهها، حريصاً على الفقه في دين الله، وتعليم الناس، والإحسان إلى الفقراء، وكان مشهوراً باستغراقه في الصلاة استغراقاً يُخرجه عن الدنيا؛ فكأنه ليس من أهلها، وكان آية في الصبر والتقوى، والرضا بقضاء الله وقدره.

وقد اعتكف في حلقات المسجد النبوى بالمدينة، والمسجد الحرام بمكة أيام الحج؛ ليدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، مع نفر من ذوي العلم بالمدينة كانوا حملة المشاعل في مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فضربوا في ميادين النظر بأوفر السهام، وقد عُرِفوا في تاريخ الفقه الإسلامي بفقهاء المدينة السبعة، وحسبك أن يكون منهم: سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعبدالله بن عتبة بن مسعود، وسلامان بن يسار، وسلام بن عبدالله بن عمر، وخارجة بن زيد بن ثابت، وعروة بن الزبير - رضي الله عنهم أجمعين.

وقد عَرَف خلفاء بني أمية إخلاص عروة وزهده وابتعاده عن السياسة، وبالتالي فلم يأخذوه بخلاف أخيه عبدالله معهم، وعاملوه أحسن معاملة، وكانوا يستقبلونه أحسن استقبال، ويَقْبَلُون نصيحة لهم، بل يستشروننه في بعض الأمور!

وقد مَرِضَ عروةُ مرضًا أوجَبَ قطعَ إحدى قدَميهِ، فما جزَعَ ولا وَهَنَ لِمَا أصابَهُ في سِبيلِ اللهِ، بل إنَّهُ عندَما علمَ بالأمرِ تَقْبَلَهُ بِرُضاً، دونَ أنْ يَظْهُرَ مِنْهُ - حتَّى في وقتِ المفاجأةِ بالخبرِ - أيُّ تغَييرٍ في صوتهِ، أو في وجهِهِ، أو على لسانِهِ، بل بدَا في غايةِ الرُّضا بِقضاءِ اللهِ وقدرهِ.

ولَمَّا دُعِيَ الطَّبِيبُ لِيقطعَ قدمَهِ، قالَ لَهُ: "تُسقيكُ الْخَمْرَ؛ حتَّى لا تجِدَ لَهَا أَلْمًا"، فقالَ: "لا أَسْتَعِينُ بِحِرَامِ اللَّهِ عَلَى مَا أَرْجُو مِنْ عَافِيَتِهِ"، قالُوا: "فَنَسقيكِ المرقدَ (نوعَ منَ الْمَهَدَّنَاتِ)؟"، قالَ: "مَا أَحَبُّ أَنْ أَسْلَبَ عَضْوًا مِنْ أَعْضَائِي وَأَنَا لَا أَجِدُ أَلَمَ ذَلِكَ فَأَحْتَسِبَ".

قالَ: وَدَخَلَ عَلَيْهِ قَوْمٌ أَنْكَرُوهُمْ، فَقَالَ: "مَا هُؤُلَاءِ؟"، قالُوا: "يُمْسِكُونَكُمْ، فَإِنَّ الْأَلَمَ رِبَّمَا عَزَّ مَعَهُ الصَّبَرِ"، قالَ: "أَرْجُو أَنْ أَكْفِيَكُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِيِّي"، فَقَطَعَتْ كَعْبَةُ السَّكِينِ، حتَّى إِذَا بَلَغَ الْعَظَمَ وَضَعَ عَلَيْهَا الْمَنْشَارُ فَقَطَعَتْهُ وَهُوَ يَهْلِلُ وَيَكِيرُ، ثُمَّ إِنَّهُ أَغْلَى لَهُ الْزَّيْتُ مِنْ مَفَارِقِ الْحَدِيدِ، فَحَسِمَ بِهِ، فَغُشِّيَ عَلَيْهِ، وَأَفَاقَ وَهُوَ يَمْسِحُ الْعَرَقَ عَنْ وَجْهِهِ، وَلَمَّا رَأَى الْقَدْمَ بِأَيْدِيهِمْ دَعَا بِهَا، فَقَلَّبَهَا فِي يَدِهِ ثُمَّ قَالَ: "أَمَا وَالَّذِي حَمَلْنِي عَلَيْكُمْ، إِنَّهُ لِي عِلْمٌ أَنِّي مَا مَشَيْتُ بِكِ إِلَى حِرَامٍ"، أَوْ قَالَ: "إِلَى مَعْصِيَةٍ قَطْ!" وَكَانَ هَذَا هُوَ كُلُّ مَا صَدَرَ مِنْهُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ!

وَكَانَ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ وَحْكُمَتِهِ أَلَا يَقْفَأَ الْأَمْرَ بِعِرْوَةَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِيدِ، بَلْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَظْهُرَ عَظَمَةُ هَذَا الْفَقِيهِ الْجَلِيلِ وَعُمَيقُ إِيمَانِهِ، وَقَوْةُ جَلَدِهِ وَتَحْمِلُهُ، وَضَرِبَهُ الْمَثَلُ فِي الصَّبَرِ وَالْاحْتَسَابِ؛ فَفِي هَذِهِ الظَّرُوفَ نَفْسُهَا شَاءَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ أَنْ يَقُولَ أَمْرًا مُحْزِنًا آخَرَ يُؤْدِي إِلَى كَارِثَةِ أُخْرَى؛ فَقَدْ دَخَلَ وَلَدَهُ "مُحَمَّدًا" (إِصْطَبْلَيُّ الْخَيْولِ) مِنْ دَارِ الْخَلَافَةِ؛ لِيَنْهَضَ بِفَرْسِهِ لَهُ، فَصَادَفَ خَيَالًا هَائِجًا يَعْتَرِضُهُ فِي عَدُوِّ مَجْنُونٍ، سَرَعَانَ مَا أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَسْلَمَ الرُّوحَ، وَالْأَبُّ الْحَزِينُ لَمْ يَهُدَّ بَعْدَ مِنْ أَلَمِ الْقَطْعِ، لِيَصُدِّمَ بِنَعْيِ ولَدِهِ الْحَبِيبِ!

وَلَمْ يَمْلِكْ غَيْرَ الدَّمْوعِ، فَالْاسْتَغْفَارُ وَالْاسْتِرْجَاعُ، وَقَدْ أَحْضَرَ لَهُ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلْكَ مَنْ يَوَاسِيهِ مِنْ أَرْبَابِ النَّوَائِبِ، فَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ ثُمَّ رَفَعَ يَدِهِ إِلَى السَّمَاوَاتِ، لِيَقُولَ لَهُ فِي ضَرَاعَةِ: "اللَّهُمَّ لَئِنْ أَخْذَتَ لَقَدْ أَبْقَيْتَ، وَلَئِنْ ابْتَلَيْتَ لَطَالَمَا عَافَيْتَ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ"!

وَلَمْ يَتَرَكْ وَرْدَهُ إِلَّا لِيَلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ اسْتَأْنَفَهُ مِنَ الْلَّيْلَةِ الْمُقْبَلَةِ؛ إِذَا كَانَ يَصْلِي الْلَّيْلَ بِرِبعِ الْقُرْآنِ، وَمَنْعِهِ هِيجَانُ الْأَلَمِ أَنْ يَقْرَأَ بَعْدَ الْقَطْعِ.

وَمَنْ الَّذِي يَطِيقُهُ؟ لَكُنْ ذَلِكَ كَانَ - كَمَا ذَكَرْنَا - لِلْيَلَةِ وَاحِدَةً، فَمَنْ يُسْتَطِعُ أَنْ يَفْعُلْ هَذَا، وَمَنْ يَصْلِي إِلَى هَذِهِ الْدَّرْجَةِ مِنَ الْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ؟!

وَقَدْ وَاسَّاهَ كَثِيرُونَ، وَقَدَّمُوا لَهُ أَفْضَلَ الْمَوَاعِذَ، وَكَانَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ، وَيَقْبَلُ مَوَاعِذَهُمْ مَعَ أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ مِنْهُمْ، وَأَقْوَى إِيمَانًا؛ لِكَنَّهُ أَدْبُرُ الإِسْلَامِ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْتَّوَاضُعِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ مَا سَجَّلَهُ الرِّوَاةُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَنْسَبُ إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ طَلْحَةَ حِينَ قَالَ لَهُ: "وَاللَّهِ يَا عِرْوَةَ، مَا بَكَ حَاجَةٌ إِلَى الْمَشِيِّ، وَلَا أَرْبَبُ فِي السَّعْيِ، وَقَدْ تَقْدَمْتُكَ عَضْوًا مِنْ أَعْضَائِكَ وَابْنَكَ مِنْ أَبْنَائِكَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْكُلُّ يَتَبعُ الْبَعْضَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - وَقَدْ أَبْقَى اللَّهُ لَنَا مِنْ عِلْمِكَ وَرَأْيِكَ مَا كَانَ إِلَيْهِ فَقَاءُ، وَعَنْ غَيْرِهِ أَغْنِيَاءُ، وَاللَّهُ وَلِيُّ ثَوَابِكَ، وَالضَّمِّنَ بِحَسَابِكَ".

فَكَانَ لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْطَّيِّبَاتِ وَأَمْتَالِهَا وَقُعُّهَا الطَّيِّبَةُ عَلَى عِرْوَةَ بْنَ الْزَبِيرِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ، إِمامِ الصَّابِرِينَ وَالْمُحْتَسِبِينَ فِي حَضَارَتِنَا الإِسْلَامِيَّةِ بَعْدَ خَاتَمِ الْمَرْسُلِينَ وَإِمامِ الْمُتَقِينَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

المصادر: